العقل: مكانته وضوابط الاستدلال به في ضوء القرآن والسنة

المكي اقلاينة
جامعة قطر
البريد الإلكتروني: adam4141@hotmail.com

الملخص

الغرض من هذا البحث بيان مكانة العقل وما يتصل به من ضوابط الاستدلال في ضوء القرآن والسنة النبوية الشريفة، وبالعودة إلى أقوال المفسرين والمحدثين لتوضيح المسألة أكثر. ولم يكن الهدف منه جعله موضوعا عقليا بحتا، لأن ذلك من شأن الدراسات المنطقية التي لم نشأ الخوض فيها هنا.وتبرز أهمية هذا البحث في تسليط الضوء على هذا المجال لإبراز الجوانب التي يدخل فيها استعمال العقل، والتمييز بين مستويات الحقائق التي يمكن الوقوف عليها، وكيف أن الإسلام أفسح المجال للعقل، وبين ما لا يدخل فيه، وما يجب اجتنابه من منغصات تؤدي إلى سوء استعماله.

الكلمات الدالة: عقل; استدلال; القران; السنة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا. أما بعد:

فإن البحث في موضوع العقل يمكن أن يكون بحثا موسعا، لكننا لا نقصده في هذا الموضوع، لكن من المفيد الإشارة إلى أن العلماء تكلموا فيه، وحاولوا تعريفه، مع وقوعهم في اختلاف بينهم، أحدهم هو الشيخ أبو حامد الغزالي الذي ذكر جملة من معانيه، منها أنه العلم بحقائق الأمور، فيكون صفة العلم الذي محله القلب، ومنها أنه يراد به المدرِك للعلوم، فيكون هو القلب[1]، وذهب ابن تيمية إلى أن اسم العقل عند المسلمين إنما هو صفة، وهو الذي يسمى عرضا قائما بالعاقل[2]. ولا يسمى العاقل عاقلا إلا إذا صاحب العلمَ العملُ في المنظور

[1]- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين 4/3.
[2]- ابن تيمية، أحمد: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 9/286-303.

الإسلامي، وإلا فإنه يشتغل بعلم لا ينفع.

وقد أعطى الإسلامُ العقلَ مكانة خاصة، فقد أعلى الله سبحانه وتعالى من شأنه، وأناط به التكليف، به يعرف السفيه والمجنون والمعتوه من غيره، وبه يُدرك حقائقَ الأمور، صالحها من فاسدها، وممكنها من مستحيلها، وبه تقوم العلاقات الإنسانية على أساس المودة وحسن الجوار. على أن مجال العقل والاستدلال به له ضوابطه ينبغي العلم بها من أجل الوصول إلى المعرفة السديدة، من أجل ذلك كان هذا البحث لتسليط الضوء على هذه الجوانب لمزيد من الفائدة. بناء عليه، جعلته في مقدمة، ومبحثين وخاتمة. المبحث الأول: مكانة العقل في ضوء القرآن والسنة. والمبحث الثاني: ضوابط الاستدلال بالعقل في ضوء القرآن والسنة. وعلى الله سبحانه وتعالى التُّكلان، هو الهادي إلى سواء السبيل.

مكانة العقل في ضوء القرآن والسنة:

لقد خلق الله تعالى الإنسان، وكرَّمه بعقله الذي يميِّز به الأمور، صحيحها من زائفها، وعليه يدور مناط التكليف، ورفع منزلة العلماء حيث قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُو العِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)[1]، وقد استخلص ابن القيم من هذه الآية ما يزيد عن سبعين وجها للدلالة على فضل العالم، منها: 1- استشهد الله العلماء دون غيرهم من البشر. 2- قرن شهادتهم بشهادته. 3- قرنها بشهادة ملائكته. 4- زكاهم، فإن الله تعالى لا يستشهد من خلقه إلا العدول. 5- وصفهم بكونهم أولي العلم. 6- استشهد الله بنفسه، وهو أجلُّ شاهد، ثم بخيار خَلْقِه، وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا...[2] وسَفَّه من لا يُعمِلُ عقله وقلبه فقال سبحانه: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[3]. وقد قيل لعبدالله بن المبارك: "ما خيرُ ما أعطي الرجل؟ قال: عقل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن. قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يشاوره. قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت

[1]- سورة آل عمران، الآية: 18.

[2]- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة 50/1 وما بعدها.

[3] - سورة الأعراف، الآية: 179.

طويل. قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل"[1].

لأجل ما سبق، نود الإشارة إلى جملة من الثوابت تبرز مكانة العقل وأهميته في خدمة العلم فيما يأتي:

حفظ العقل

أحد المقاصد الخمسة التي يحافظ عليها الإسلام، وهي: حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال، وعدَّ كلَّ اعتداء عليه من الجرائم التي جعل لها عقوبة. ومن هذه الجرائم التي تمس العقل: شرب الخمر، ويدخل في ذلك المخدرات بأنواعها، قال سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[2]، وفي ذلك نصٌّ على تحريم الخمر، إذ أمر الله تعالى باجتنابه بسبب ما يحدثه من تغييب للعقل، فكيف بشربه؟! وذلك تشديدٌ على الابتعاد عنه، وتجريم لفعل مُقْتَرِفِه، وكل محرَّم في الإسلام إلا وفيه مَضَرَّةٌ، وقد بيَّن الله تعالى سبب التحريم إذ قال: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)[3]. فمن هذه الآية يتبين أن الخمر يؤدي إلى الوقيعة بين الناس، وليعادي بعضهم بعضا فيُشتت أمرهم بعد أن ألَّف الله بين قلوبهم بالإسلام[4]، ويبعدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، وكل ذلك من فواحش الأمور، ولهذا قال عليه السلام فيما رواه عنه عبدالله بن عمرو بن العاص: (الخمر أمُّ الخبائث)[5].

الإسلامُ حرَّر العقلَ من الفكر الوثني وكل مُعَوِّقات البحث العلمي الرَّصين وحثَّ على استعماله والنظر في خلق الله تعالى للاستدلال به على الحق

قال تعالى: (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)[6]. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يطالب الخلق بالتأمل في السماوات والأرض وفيما يدل على وجوده سبحانه وتعالى بالأدلة الواضحة، وحثَّهم على استعمال العقل،

---

[1]- أخرجه البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان 165/4 ح 4679، وابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها ومن حلها من الأماثل 459/32.

[2]- سورة المائدة، الآية: 90.

[3]- سورة المائدة، الآية: 91.

[4]- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 32/7.

[5]- أخرجه الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط 81/4 ح 3667، وحسَّن المناوي، زين الدين عبدالرؤوف إسناده: التيسير بشرح الجامع الصغير 536/1.

6 - سورة يونس، الآية: 101.

إلا أن كل هذه الأدلة والبراهين الدالة على صدق ذلك لا تفيد القوم الذين لا يؤمنون[1]، فإنهم لا ينتفعون بها لإعراضهم وعنادهم[2]. وفي ذلك قال الطبري رحمه الله: "أو لم ينظروا في ذلك نظر تفكر وتدبر حتى يستدلوا بكونها محلا للحوادث والتغييرات على أنها محدثات، وأن المحْدَثَ لا يستغني عن صانع يصنعه، وأن ذلك الصانع حكيم عالم قدير مريد سميع بصير متكلم؟! لأنه لو لم يكن بهذه الصفات لكان الإنسان أكمل منه، وذلك محال!"[3].وهذا توجيه صريح إلى استعمال الفكر في مَلَكوتِ الله تعالى، والبحث في قوانينه للوصول إلى الحق، بعيدا عن كل ما يمكن أن يؤثر في صحة استعماله كما هو الحال بالنسبة للتقليد الأعمى، حيث قال سبحانه وتعالى في معرض ذمِّ الكفار الذين يعتمدون على تقليد الآباء في معتقدهم وعدم الإصغاء إلى الأنبياء والرسل كما في قوله تعالى: (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوهاإِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ)[4]، وفي ذلك قال البيضاوي في تفسيره: "تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن مقدميهم أيضا لم يكن لهم سند منظور إليه، وتخصيصُ المترفين إشعارٌ بأن التَّنَعُّمَ وحُبَّ البطالة صَرَفَهُم عن النظر إلى التقليد"[5]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا عَدْوى ولا طِيَرَة ولا هامَة ولا صَفَر"[6]، وفي الحديث نفي العدوى والطيرة وغيرها مما عَلِق بفكر بعضهم من مخلفات الفكر الجاهلي، وتنبيه على أنها لا تؤثر بذاتها، ومما قاله العيني في نفي العدوى أن في الحديث "نفي ما كان يعتقده الجاهلي من أن ذلك يعدي بطبعه، ولهذا قال: فمن أعدى الأول؟!"[7]، ونصَّ ابن عبدالبر القرطبي على أنه "نهى عن أن يقول

[1]- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم 435/2.

[2]- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 375/1.

[3]- الطبري: جامع البيان 202/2.

[4]- سورة الزخرف، الآية: 22.

[5]- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل 143/5.

[6]- متفق عليه، أخرجه البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل في صحيحه، كتاب الطب، باب الطيرة 2171/5 ح 5425، ومسلم، أبو الحسين بن الحجاج في صحيحه، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول، ولا يورد ممرض على مصح 1742/4 ح 2220، وأخرجاه بألفاظ أخرى أيضا عن غير أبي هريرة.

[7]- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عمدة القاري شرح صحيح البخاري 247/21.

أحد إن شيئا يُعدي شيئا، وإخبارٌ أن شيئا لا يُعدي شيئا، فكأنه قال:(لا يعدي شيء شيئا). يقول: ولا يصيب أحد من أحد شيئا من خلق أو فعل أو داء أو مرض. وكانت العرب تقول في جاهليتها مثل هذا أنه إذا اتصل شيء من ذلك بشيء أعداه، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قولهم ذلك واعتقادهم في ذلك ليس كذلك، ونهى عن ذلك القول"[1]. وفي ذلك تخليص للعقل المسلم من المعتقدات الفاسدة التي تحول دون استعمال العقل السليم، وتوجيه إلى استعماله فيما يُجدي، وبيان لحقائق غفل عنها القوم، وتصحيح لمعتقداتهم.

وجَّهَ الله تعالى الإنسان للبحث في قوانين الكون للاستفادة منها في حياته،

فقد بَيَّن الله تعالى في مُحْكَمِ التنزيل في آيات عديدة أن **الكون يخضع لقوانين ثابتة،** ويتَّصِف **بالحركةوالانتظاموالكمية والتقدير والتصنيف**... كما في قوله سبحانه وتعالى إشارةً إلى **الحركة**: (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا(46))[2]. وفي **الانتظام،** قال تعالى:(وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (37)وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40))[3]. وفي **الكمية والتقدير** قال تعالى:(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19)وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ(21))[4].

العقل له مجاله الذي يمكن له الخوض فيه، وحدود لا يمكن أن يتخطاها، ذلك أن العلوم على أربعة أنواع: 1- **علوم ضرورية،**

لا يمكن التشكيك فيها، لأنها تلزم جميع العقلاء، ويسلِّمون بذلك، مثل: الكل أكبر من الجزء، والاثنان أكبر من الواحد...

وعلوم نظرية،

[1]- ابن عبدالبر القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد 196/24.

[2] - سورة الفرقان، الآيتان: 45-46.

[3] - سورة يس، الآيات: 37-40.

[4] - سورة الحجر، الآيات: 19-21.

يستطيع الإنسان الوصول إليها عن طريق الاستدلال والاستنباط، ويعتمد في ذلك إلى علوم ضرورية يهتدي بها لمعرفة مدى صحتها.

وعلوم تجريبية، تخضع للتجربة من أجل الوصول إليها.

وعلوم غيبية،

وهذه لا يمكن للعقل وحده الوصول إليها، بل لابد من الاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. ينبني على ذلك أن ما كان خارج مجال العقل فإنه يتوسَّل إلى معرفته عن طريق الوحي، وهذا قد كفانا الله سبحانه وتعالى أمره، فلا يضيع الإنسان وقته فيما لا يستطيع الوصول إليه بنفسه، وبقي المجال غير الغيبي مما لا يتعلق بأمور العقيدة مجالا خصبا للعمل العقلي.

التمسك بالأمور التي أسلفنا ذكرها أدّى بالمسلمين إلى التفوق العلمي والحضاري، وكانت أخلاق المسلمين العالية من أهم أسباب سيادتهم،

ففي كلام نفيس لزيغريدهونكه: "ولعل من أهم انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إن الملك الفارس كيروس نفسه قال: (إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخرِّبين)، فما يدَّعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة"[1]. وما تخلفهم عن الرَّكْب إلا عند إغفال هذه المبادئ والوقوع في المخالفات الشرعية والخروج عما رسمه الله سبحانه وتعالى لخلقه بركوبهم المعاصي بشتى صورها.

التقدم العلمي الذي حصل عليه المسلمون في شتى مجالات المعرفة كان أساسا لتقدم الحضارة الغربية،

إذ كانوا أساتذة لهم، فقاموا بنشر المعرفة بِغَضِّ النظر عن العِرْقِ والدِّين، وكان من نتائج ذلك تَفَتُّحُ عُقول الغرب، خصوصا بعد تحرره من سلطان رجال الكنيسة الذين كانوا يحاكمون كلَّ مَن يصَرِّحُ برأيٍ مُخالفٍ لما يقولون به، وقد شهد الغرب بعطاء المسلمين وسيادتهم في المجال العلمي، حتى جاء على لسان زيغريدهونكه: "إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلَّم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من اللا شيء لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ

[1]- زيغريدهونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 357-358.

الفكر الإنساني. وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضِّرة في هذا العصر لَفريدةٌ في نوعها لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها... إن ما حققه العرب لم تستطع أن تحققه شعوب كثيرة أخرى كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان يؤهلها لهذا"[1].

إذا عرفنا فضل المسلمين على غيرهم في هذا التقدم العلمي الذي حصّلوا عليه، فإنه ينبغي إعادةُ النظر في المناهج التعليمية والتربوية، وبناءُ ذلك على هذه الجهود مع الاستفادة من إيجابيات عمل غيرنا، لا مجرد تقليد ما يدعو إليه الغرب، بهدف متابعة الرقي العلمي. ضوابط الاستدلال بالعقل في ضوء القرآن والسنة: أسَّسَ القرآنُ الكريمُ ثم السنة النبوية منهجَ الوصولِ إلى المعرفة، يمكن لنا رَصْدُهُ إجمالا فيما يأتي:

الانطلاق من عقيدة التوحيد في بحث الإنسان حقائقَ الوجودِ،

قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[2]، فالله سبحانه وتعالى هو الحق المطلق، وهو مصدر كل الحقائق المعرفية التي أمرنا بالبحث عنها واستقرائها في عالم الشهادة باعتبارها مصدرا للثقة واليقين، قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[3].

رَدُّ كلِّ شيء في هذا الوجود إلى الخالق سبحانه وتعالى لأنه الذي أوجده وأخضعه لنظام وقوانين ثابتة، وتوازُنٍ مُحْكَم.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى جملة من القوانين التي تنظم الكون، وهي قوانين مُطَّرِدَة، مثل العلاقات السَّبَبِيّة، نستفيد منها ونتمكَّن بها من الاستدلال على قدرة الله تعالى ووحدانيته. وهذا يدفعنا إلى المزيد من البحث لاكتشاف النواميس الكونية لاستغلالها في واقعنا، وذلك لعدم تناقضها أو تفاوتها، وقد نبه الخالق سبحانه وتعالى على ذلك في قوله: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)[4]. وفي ذلك تحد للخلق أن يجدوا عيبا أو خللا أو تفاوتا في خلق الله تعالى[5]، وفيه

[1]- زيغريد هونكه: المرجع ذاته، ص: 354.
[2]- سورة العلق، الآيات: 1-5.
[3]- سورة فصلت، الآية: 53.
[4]- سورة الملك، الآية: 3.
[5]- يراجع: الطبري: جامع البيان 2/29، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم 397/4، وابن عطية،

تنبيه على أن الكون يسير على نظام واحد، لا اختلال فيه. ومن هذه القوانين الكونية: "قانون التدافع بين الحق والباطل"[1]، و"قانون الابتلاء"[2]، و"سنة الله في الظلم والظالمين"[3]، و"سنة الله في الاختلاف والمختلفين"[4]، و"سنة الله في المتساوين والمختلفين"[5]، و"سنة الله في الترف والمترفين"[6]، و"سنة الله في الطغيان والطغاة"[7]...

ضرورة الاعتماد على الدليل فيما يدَّعيه المرء،

أما مجرد الدعوى من غير دليل فإنها لا توصلنا إلى معرفة يمكن الاطمئنان إليه. وقد تظافرت الأدلة من القرآن والسنة على المطالبة بالدليل والبرهان عند الدعوى، من ذلك ما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو يُعْطَى الناس بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ وَلَكِنَّ الْيَمِينَ على الْمُدَّعَى عليه"[8]. وتختلف طبيعة الأدلة بحسب موضوع الدرس كي يكون مناسبا له.

الاعتماد على ما صحَّ، وترك ما لم يصح، لأن الاستناد إلى الدليل الضعيف يؤدي إلى ردِّ الحكم، وفي ذلك قال تعالى مطالبا اليهود والنصارى بدليلهم على دعواهم: (وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[9]،وقد علق الزمخشري على ذلك بقوله: "كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت"[10]. وعند السمرقندي في كلامه عن (أمانيهم): "أي ظنهم وأباطيلهم وهذا كما يقال للذي يدعي ما لا يبرهن عليه إنما أنت متمن وإنما يراد به إنك مبطل في قولك"[11].واشترط في الشهادةِ شهادةَ عدلين، أو رجل وامرأتين ممن نرضى

أبو محمد عبدالحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 338/5.

[1]- زيدان، عبدالكريم: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص: 43-78.

[2]- زيدان: المرجع ذاته، ص: 79-111.

[3]- زيدان: المرجع ذاته، ص: 113-134.

[4]- زيدان: المرجع ذاته، ص: 135-161.

[5]- زيدان: المرجع ذاته، ص: 163-182.

[6]- زيدان: المرجع ذاته، ص: 183-187.

[7]- زيدان: المرجع ذاته، ص: 189-198.

[8]- متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لهم)... 1656/4 ح 4277، ومسلم في صحيحه- واللفظ له- كتاب الأقضية، بَاب الْيَمِينِ على الْمُدَّعَى عليه 1336/3 ح 1711.

[9]- سورة البقرة، الآية: 111.

[10]- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل 204/1.

[11]- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد: بحر العلوم 111/1.

من الشهداء حتى تُقبل شهادتهم. كما اشترط علماء الحديث لقبول الخبر جملة من الشروط تعود إلى عدالة الرواة، وضبطهم، واتصال السند، وخلوه من الشذوذ والعلة، وهي ضوابط فصلوا فيها انطلاقا من فهم ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، حيث نجد الرسول عليه السلام يتكلم عن ضبط النقلة في قوله: "نَضَّرَ الله أمرأ سمع مِنَّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حتى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فإنه رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ ليس بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى من هو أَفْقَهُ منه"[1]، وحذَّر من الكذب عليه كما فيالحديث المتواتر عنه قال: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"[2]. واهتم المحدثون بتتبع الرواة والأسانيد من أجل غربلتها والتمييز بين صحيحها وسقيمها ونقد المتون. وقد انتشر عند العلماء قولهم: "إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل"، وهي قاعدة عظيمة مأخوذة من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ضرورة التمييز بين مستويات الأدلة،

فمنها الأدلة اليقينية، والأدلة الظنية، وهي على مراتب متفاوتة. وفي كتاب الله تعالى تنبيه على أن الكفار إنما يتبعون ظنونهم التي لا تقوم على الدليل، أو عدُّوها دليلا وهي لست كذلك في واقع الأمر كما في قوله سبحانه وتعالى: (ومَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)[3]. لأجل ذلك فإنه ينبغي التمييز بين مستويات الأدلة، والأخذ بما كان قويا وترك ما عداه، لأن بدهيات العقول تسلِّم به. وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفيد ذلك، حيث قال: "إنما أنا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلي وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ من بَعْضٍ وَأَقْضِيَ له على نَحْوِ مما أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ له من حَقِّ أَخِيهِ شيئا فلا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ له قِطْعَةً من النَّارِ"[4]، ذلك أن من القوم

---

[1]- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده 183/5.

[2]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت... 434/1 ح 1229، ومسلم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم 10/1 ح 3.

[3]- سورة يونس، الآية: 36.

[4]- متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه- واللفظ له- كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية ثم وجدها صاحبها فهي له، ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنا، وقال بعض الناس: الجارية للغاصب لأخذه القيمة، وفي هذا احتيال لمن اشتهى جارية رجل لا يبيعها فغصبها واعتل بأنها ماتت حتى يأخذ ربها قيمتها فتطيب للغاصب جارية غيره... 2555/6 ح 6566، وكتاب الأحكام، بابمن حَكَمَ في الْمَسْجِدِ حتى إذا أتى على حَدٍّ أَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ من الْمَسْجِدِ فَيُقَامَ، وقال عُمَرُ: أَخْرِجَاهُ من الْمَسْجِدِ، وضربه. وَيُذْكَرُ عن عَلِيٍّ نَحْوُهُ 2622/6 ح 6748، وبَاب من قضى له بِحَقِّ أَخِيهِ فلا يَأْخُذْهُ، فإن قَضَاءَ الْحَاكِمِ لَا يُحِلُّ

من يحاول إظهار الباطل في صورة الحق، أو يظن أنه على حق اعتمادا على ما يعتقده دليلا، بينما لا يكون كذلك في الحقيقة.

الاعتماد على الحواس لإدراك المعرفة فيما يحتاج إلى ذلك، فقد قال سبحانه:

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)[1]، وفسَّر الزمخشري قوله تعالى: (وجعل لكم) بقوله: "أي وما ركَّب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به"[2]. وقالأيضا: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا)[3]، والسمع والبصر والفؤاد من وسائل إدراك المعرفة، وفي ذلك قال البيضاوي: "أداة تتعلمون بها فتحسون بمشاعركم جزيئات الأشياء فتدركونها، ثم تتنبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها بتكرر الإحساس حتى تتحصل لكم العلوم البديهية، وتتمكنوا من تحصيل المعالم الكسبية بالنظر فيها"[4]. وقال عز من قائل: (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين)[5]. وقال تعالى في حق الكفار إذ لم يُعْمِلوا عقولهم ولا حواسهم لأجل الوصول إلى الحق والإيمان: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)[6].

اجتناب التقليد الأعمى،

إذ يحول بين المرء والوصول إلى الحقيقة، وفي ذلك قال سبحانه وتعالى مؤاخذا الآخذين بذلك: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)[7]، وقد قال الرازي في ذلك منبها على انحطاط مستوى المقلد الأعمى من خلال الآية المذكورة: "ضرب لهم هذا المثل تنبيهاً للسامعين

حَرَامًا ولا يُحَرِّمُ حَلَالًا 2626/6 ح 6759، وبَاب القضاء في كثير المال وقليله. وقال ابن عيينة عن ابن شبرمة: الْقَضَاءُ في قَلِيلِ الْمَالِ وَكَثِيرِهِ سَوَاءٌ 2627/6 ح 6762، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، بَاب الْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ وَاللَّحْنِ بِالْحُجَّةِ 1337/3 ح 1713.

[1] - سورة النحل، الآية: 78.

[2] - الزمخشري: الكشاف 538/2.

[3] - سورة الإسراء، الآية: 36.

[4] - البيضاوي: أنوار التنزيل 413/3.

[5] - سورة البلد، الآيات: 8-10.

[6] - سورة الأعراف، الآية: 179.

[7] - سورة البقرة، الآية: 170.

لهم أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء وقلة الاهتمام بالدين، فصيرهم من هذا الوجه بمنزل الأنعام. ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك فيكون كسراً لقلبه وتضييقاً لصدره، حيث صيره كالبهيمة، فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد"[1].وقد وعى المسلمون هذا الدرس، فنجدهم يحرصون على الأخذ بالدليل وعدم التقليد الأعمى، فعن الإماممالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان عن ابن محيريز أن رجلا من بني كنانة يدعى المخدجي سمع رجلا بالشام يكنى أبا محمد يقول:"إن الوتر واجب". قال المخدجي: فرحت إلى عبادة بن الصامت فاعترضت له وهو رائح إلى المسجد فأخبرته بالذي قال أبو محمد،قال عبادة: كذب أبو محمد، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة"[2]، فهذا خداجة لم يرض بقول الكناني، بل انتقل من أجل التأكد من الحكم والخبر في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومثل هذا السلوك نجده يتكرر من أجل التأكد من صحة المعلومة، وعدم الوقوف عند التقليد، خاصة عند حصول الشك، أو بحثا عن اليقين.

الخاتمة

تمكنا من خلال هذا البحث الوقوف على جملة من الفوائد المتعلقة بمكانة العقل وأهميته في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، فعالجنا في المبحث الأول منه مكانة العقل في ضوء القرآن والسنة، وتبين لنا ذلك من خلال كونه يعد أخد المقاصد الخمسة التي يحافظ عليها الإسلام، وأن الإسلام حرره من الفكر الوثني وكل معوقات البحث العلمي الرصين وحثّ على استعماله والنظر في خلق الله تعالى للاستدلال به على الحق، كما أن الله سبحانه وتعالى وجَّه الإنسان للبحث في قوانين الكون للاستفادة منها في حياته، كما بين أن مجال العقل هو عالم المشاهدة، وليس عالم الغيب لأنه فوق

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب 8/5.

[2]- أخرجه البيهقي: معرفة السنن والآثار 393/1 ح 504، وأورده ابن عبدالبر القرطبي في (التمهيد)، ثم قال فيه: "لم يختلف عن مالك في إسناد هذا الحديث، فهو حديث صحيح ثابت، رواه عن محمد بن يحيى بن حبان جماعة..." 288/23.

مستوى الإدراك، وهذا يجعلنا نحسن استغلال الوقت فيما يجدي لمزيد من البحث النافع، ونتيجة ذلك تمكن المسلمون من التفوق العلمي، وأن يكونوا سادة العالم عندما طبقوا المنهج الإسلامي. ونحن اليوم في حاجة إلى العودة إلى هذا المنهج في التربية والتعليم لتحقيق المزيد من التقدم، والخروج من ربقة التقليد الأعمى للغرب.

وفي المبحث الثاني، عالجنا ضوابط الاستدلال بالعقل في ضوء القرآن والسنة، أجملنا ذلك في جملة من النقاط، منها: الانطلاق من عقيدة التوحيد في بحث الإنسان حقائق الوجود، وردُّ كل شيء في هذا الوجود إلى الخالق سبحانه وتعالى لأنه الذي أوجده وأخضعه لنظام وقوانين ثابتة وتوازن محكم، وضرورة الاعتماد على الدليل فيما يدعيه الإنسان، وأن يكون الدليل صحيحا، مع ضرورة التمييز بين مستويات الأدلة، والاعتماد على الحواس لإدراك المعرفة فيما يحتاج إلى ذلك، واجتناب التقليد الأعمى.

إن السير على هذا الهدي سيساعدنا على التطور المعرفي، وحسن استغلال الوقت في سبيل النهوض الحضاري.

فهل من إرادة لهذا الأمر؟ هذه إرادتنا، نرجو لها التمام.

المصادر والمراجع:

- أحمد بن حنبل الشيباني: المسند- مؤسسة قرطبة- مصر- د.ت.
- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن بردزبه الجعفي: الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه- ت. مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير، اليمامة – بيروت- ط3- 1408 هـ/ 1987.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل- دار الفكر- بيروت- د.ت.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان- ت. محمد السعيد بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1410.
- ابن تيمية، أحمد: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية- جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي وابنه محمد-

مطابع الرياض- الرياض- 1381.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- ت. عبدالرزاق المهدي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- د.ت.
- زيدان، عبدالكريم: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط3- 1419 هـ/ 1998.
- زيغريدهونكه: شمس العرب تسطع على الغرب- نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، وراجعه: مارون عيسى الخوري- دار الجيل ودار الآفاق- بيروت- ط8- 1413 هـ/ 1993.
- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- ت. ابن عثيمين- مؤسسة الرسالة- بيروت- 1421 هـ/ 2000.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد: بحر العلوم- ت. محمود مطرجي- دار الفكر- بيروت- د.ت.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط- ت. طارق بن عوض الله وعبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني- دار الحرمين- القاهرة- 1415.الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن- دار الفكر- بيروت- 1405.
- ابن عبدالبر القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد- ت. لفيف من العلماء- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الرباط- 1387.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها ومن حلها من الأماثل- ت. محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمري- دار الفكر- بيروت- 1995.
- ابن عطية، أبو محمد عبدالحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ت. عبدالسلام عبدالشافي محمد- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1413 هـ/ 1993.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عمدة القاري شرح

صحيح البخاري- دار إحياء التراث العربي- بيروت- د.ت.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم- دار الفكر- بيروت- 1401.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين- مكتبة عبدالوكيلالدروبي- د.ت.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة- دار الكتب العلمية- بيروت- 1419 هـ/ 1998.
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- ت. محمد فؤاد عبدالباقي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- د.ت.
- المناوي، زين الدين عبدالرؤوف: التيسير بشرح الجامع الصغير- مكتبة الإمام الشافعي- الرياض- ط3- 1408 هـ/ 1988.